المَدَارِسُ وَالمَعَاهِدُ العُلْيَا

دَوْرُهَا في النَّهْضَة العَرَبيَة الحَدِيثَة*

الدكتور صَالح الخرفي

في الربع الأخير من القرن الماضي، والربع الأول من القرن الحالي، لم يكن قطر واحد من أقطار الوطن العربي في مشرقه ومغربه، يتنفّس حريّته ملء رئتيه، بل إن هذه الحرية كانت منعدمة أصلاً بالنسبة إلى أقطار واقعة تحت الاستعمار المباشر، خانق الحريات، وأقطار أخرى لم تتنفس حرية غير مشوبة بوصابة أو حماية، أو انتداب أو استبداد. تعددت الأسباب والموت واحد.

والآمال المكبوتة التي كانت تتفجر وتتصاعد مع انتفاضة شعبية عارمة أو زعامة وطنية ثائرة، هذه الآمال سرعان ما تتهاوى أشلاء مع انكسار تلك الانتفاضة في وجه القوة الغاشمة، أو انحدار تلك الزعامة وتمزقها بين الوعود الأجنبية

---

* ألقي هذا البحث في الذكرى الخامسة والستين لمعهد الحياة بالجزائر. و(معهد الحياة) بمدينة (القرارة) ولاية غرداية. جنوب الجزائر، يعتبر أقدم وأول معهد عال حر في القطر الجزائري، أسسه سنة ١٣٣٤هـ/١٩٢٥م زعيم الحركة الإصلاحية في جنوب الجزائر، وأحد المؤسسين الأوائل لـ(جمعية العلماء المسلمين الجزائريين) سنة ١٩٣١، العلامة الراحل الشيخ إبراهيم بن عمر بيوض (١٨٩٩-١٩٨١) ومنذ التأسيس في العشرينات لم يتوقف المعهد عن رسالته التربوية والتعليمية في مختلف العلوم الشرعية والحضارية والإنسانية، وقد استوعبت برامجه منذ الخمسينات المواد العلمية واللغات الأجنبية، وتخرج في المعهد العشرات من رجال الإصلاح والتربية والتعليم والأدباء والشعراء وأعضاء البعثات العلمية خارج الجزائر، يدير المعهد منذ الأربعينات أستاذ الأجيال المتعاقبة شريفي سعيد أمد الله في عمره.

الخادعة، والأطماع الاستعمارية المبيتة لاقتسام الوطن العربي واغتصاب حريّته واستقلاله.

كانت الفجائع والنهايات القاتمة متوالية، متواترة، وتكاد تكون متوارثة توارث التصميم على التصدّي وعدم الاستكانة، تواتر الاستماتة على إحياء الأمل في الخلاص وعدم الركون إلى اليأس، توالي اليقظة الوطنية في مواجهة الدسائس الأجنبية.

لكن النهايات القاتمة كانت كفيلة بمضاعفة الشعور بالإحباط من ناحية، وقادرة من ناحية أخرى على تفجير طاقات جديدة، وطرق مستجدة لتضميد الجراح واستقطاب الفلول لجولة قادمة في الدفاع عن العروبة والإسلام.

كان الصراع بين الأمل واليأس في أوجه. والتجاذب بين الصحوة والغفوة في ذروته، والتنازع بين إحساس بالذات متصاعد، ومؤامرات على الذات متكالبة، فأخذت الثورات برقاب بعضها، وتسلسلت الجولات التاريخية، والمواقف البطولية التي لم يجد فيها المستعمر إلا الذريعة المبرّرة لإحكام الحصار على الوطن العربي، والتهام ما تبقّى من أجزائه، والإطباق على كل شبر فيه[1].

وفي الوقت الذي كان فيه التآمر الأجنبي على الثورات المسلّحة يزداد ضراوة، والحصار الاستعماري لكل انتفاضة يتطاول إخماداً لأنفاسها، والمواجهة مع الدخيل تنتقل من الصراع المسلّح إلى الفتك الروحي المبيّت، والتسميم العقلي المندس، واجتثاث الشخصية الوطنية من جذورها الروحية والعقلية، ومحوها من خارطة العالم الإسلامي.

* * *

في هذا الوقت العصيب، والمنعرج المصيري الخطير كان الله يهيئ لهذه الأمة من أبنائها البررة من يجدد دورتها الدموية، وينشط القلب في نبضاته المتباطئة، ويتدارك الإسلام في معاقله الروحية، بعد إنهاك حصونه البطولية.

وكخط تراجعي في مواجهة الكرّ والفرّ، وسجال المعركة، تنامت فكرة المواجهة السياسية للدخيل وهو في عقر الدار، بعد فشل المواجهة المسلّحة وهو على عتبتها. انتقلت المعركة من السواحل والثغور والحدود وحتى أسوار المدن، إلى داخل المدينة نفسها. وعندما يكون وقع القدم الغازية للوطن بداية معركة البقاء فيه بالنسبة إلى الدخيل، يصبح التحصّن الروحي، والتصدّي الفكري، والتحدي السياسي في حساب المواطن بداية معركة الانعتاق واسترجاع الكرامة.

انبثقت فكرة الإصلاح السياسي في زعماء العالم الإسلامي الذين كانوا أقرب عهداً إلى الثورات المسلّحة المهيضة، وبعضهم من شهود هذه الثورات[٢] وآخرون من أبناء شهدائها وأبطالها، فالدم المطلول لا يزال سخيناً، والجراح لا تزال غائرة، والذكريات الأليمة نابضة حية لم تقو الأيام عليها بعد، فكان من الطبيعي أن يبتدر الإصلاح الديني، الإصلاح السياسي مباشرة[٣].

فانتفض (جمال الدين الأفغاني) [٤] ينفخ الروح في الدين والسياسة ويصل شتات الأمة بـ(العروة الوثقى) ويجوب العالم الإسلامي داعية مستنفراً، يواجه الاستبداد في أحكامه وحكامه، ويفضح الغرب في أطماعه وغاياته، فعاش طريداً من هذا وذاك، حتى قضى مكتوم النفس، مخنوق الصوت، ولم يزل وسيبقى (الرجل المفترى عليه) لأنه رمز من رموز الصحوة الإسلامية الصادقة التي يرهبها أعداء الإسلام[٥].

وانتفض معاصراً له (عبدالرحمن الكواكبي) ومناصراً،[٦] يفضح أمام أمته المغلوبة على أمرها، المغتالة في وعيها (طبائع الاستبداد) ويستنفرها لمؤتمر

مشهود، واجتماع حاشد في (أم القرى) لتتدبر أمرها[٧] وتستشرف مصيرها، وكأنه يهيب بالأمة أن تؤوب إلى النبع الأصلي من جديد، وتعود أدراجها إلى مهد الإسلام الأول إن أرادت لنفسها خلاصاً في حاضرها، ومصيراً محموداً في غدها.

وتجاوبت الدعوات الإصلاحية المشوبة بالفكرة السياسية، وتنادى زعماؤها مشرقاً ومغرباً، وكثر أتباع (الأفغاني) وأبناء (العروة الوثقى) [٨] فما من زعيم مصلح في هذه الفترة إلا وله في السياسة قدم صدق إلى جانب أختها في الإصلاح الديني، بعضهم خاضها نظرياً وفكرياً، وبعضهم عزز الفكرة والنظرية بالتطبيق العملي، فكون الخلية، وأسس الحزب. وقلة أوتيت فرصة عابرة في السلطة فاهتبلتها لتطبيق الفكرة السياسية والإصلاحية معاً[٩].

إن ربط الإصلاح السياسي بالإصلاح الديني في جبهة واحدة كان السمة الغالبة على الحركات الإصلاحية في أول أمرها في القرن الماضي، لقرب عهدها أو معاصرتها للمواجهة الحامية للاحتلال الأجنبي، والاستبداد (العرقي) من ناحية، ومعاناتها من ناحية أخرى من الانحراف الديني، والتضليل العقائدي، فالجبهات كانت متداخلة، والتعبئة موزّعة، ولم يكن في مقدور رجل الإصلاح أن يولي ظهره للضيم المسلّط على الأمة متفرغاً للإصلاح الديني وحده.

والجانب السياسي في زعماء الإصلاح الديني، في عهد الاستعمار والتبعيّة كان السبب المباشر للتنكيل بهم، والحجة الشرعية في اجتهاد الحاكم لمطاردتهم، ولو تتبعنا الإصلاح السياسي بمختلف جبهاته مشرقاً ومغرباً، وتعاقب جولاته من قرن سابق إلى آخر لاحق، واستقرأنا مسيرته ليناً وشدة، اعتدالاً وتطرفاً، إصلاحاً للدين والسياسة معاً متمثلاً في نظام تربوي، أو جمعية وطنية، أو استهدافاً لإصلاح السياسة مباشرة، مجسماً في (مؤتمر قومي) أو (حزب سياسي)؛ اقتصاراً على المطالبة ببعض الحقوق الاجتماعية والنيابية في حكم التبعية، أو تطلعاً إلى

التساوي في بعض الحقوق السياسية مع رعايا الحكم الدخيل[١٠]، لوجدناه يلقى مصيراً واحداً.

هذا التململ السياسي بأوجهه المختلفة لم يكن في حساب المحتل أو المتسلط على الوطن العربي إلا خروجاً عن الطاعة، وامتداداً للعصيان المسلّح، ومواصلة للتحدّي. فلم يكن حظ هذه الجولة من الإصلاح السياسي بأسعد من سابقتها في ميادين الاستشهاد. فكان الغاصب بالمرصاد لكل نفس إصلاحي لا يرخى له الزمام إلا لمفاجأته من مأمنه، فإذا أخذه لم يفلته. فتراوحت مصائر زعماء الإصلاح الديني والسياسي بين النفي والإبعاد والزجّ في السجون والتدلّي على أعواد المشانق، والاستشهاد غيلة في الميادين والساحات العامة في الوطن المستباح وبين أبنائه المقهورين[١١].

كانت الحركات الإصلاحية السياسية تلاقي ما لاقته سابقتها في مواقع المجابهة المسلّحة، وتتجرع الغصص بعينها. ومن ثنايا هذه المحنة، وفي أحشائها كان المخاض لوريث جديد للأمانة، وبديل وليد لحمل الرسالة، استوعب التجربة الفاشلة، ووعى العبرة الكاشفة، وخبر العدوّ في مقاتله، واستقصاه في مخاتله. فانتهج للإصلاح منهجاً مغايراً، احتفظ فيه بالمقومات المرجعية للإصلاح الديني، وحافظ على الثوابت المكونة للشخصية العربية المسلمة، واستبعد – مرحلياً– الأهداف السياسية. تبرّأ منها مظهراً، واستسرها للمستقبل الكاشف.

هذا الوليد الوريث هو الإصلاح الديني التربوي والاجتماعي بالمفهوم (العبدوي) المتبرّئ من (ساس ويسوس) والحامل لمبدأ: (ما دخلت السياسة أمراً إلا أفسدته) وبالرغم من أستاذية (الأفغاني) للشيخ محمد عبده والتقائهما في (العروة الوثقى) فإن إخلاص الطالب لأستاذه كان كفيلاً بأن لا يعرض إرثه للضياع مرة أخرى بالتشبث الأرعن بالوجهة السياسية العجلى في رياح معاكسة هوجاء[١١].

ومن اللافت للنظر أن هذا المفهوم (العبدوي) للحركة الإصلاحية هو الذي لقي صداه في أبناء المغرب العربي في أواخر القرن الماضي وأوائل قرننا هذا فتلقوه على ظمأ، فقد كانت المحن المتوالية، والنكسات المتعاقبة كافية لتعزيز القناعة بالانكفاء على الذات، تداركاً لها قبل الفوات، وترميماً لمعالمها قبل التلاشي، واللحاق بالمواطن في نفسه الأخير، دينه ولغته.

ولقد اعتبرت المناقشات في الأوساط العلمية في المغرب العربي حول (محمد عبده) وحركته الإصلاحية، ممن كانوا له أو عليه، بدايات النهضة الإصلاحية الحديثة، وكان الإرث الديني والفكري، والرصيد القلمي، والزيارة الشخصية كفيلة بتعزيز هذه البدايات والوصول بها إلى حدّ (الحزب الديني المصلح) فقال الشيخ رشيد رضا وهو يؤرخ لزيارة الإمام (عبده) أقطار المغرب العربي في مستهل القرن، (وقد وجد له في تونس والجزائر حزباً دينياً ينتمي إليه من حيث لم يكن يعلم)[١٢].

وتجاوباً مع المبدأ (العبدوي) في إبعاد السياسة عن الإصلاح، صدرت بعض الصحف الوطنية قبيل الحرب العالمية الأولى في ظل هذا المبدأ، بل جعلت الإمام بعد وفاته بعشر سنين (المشرف الديني على الجريدة)[١٣].

وصيغت القوانين الأساسية للمؤسسات الإصلاحية في العشرينات بريئة متبرئة مما يمت إلى السياسة بسبب، فتضمن القانون الأساسي لـ(نادي الترقي) بعاصمة الجزائر سنة ١٩٢٦ مادة تنص على (تحريم الخمر والميسر والمناقشات السياسية في النادي)[١٣] ويوم تأسست (جمعية العلماء المسلمين الجزائريين) سنة ١٩٣١ نص الفصل الثالث من قانون الجمعية على ما يلي: (لا يسوغ لهذه الجمعية بأي حال من الأحوال أن تخوض أو تتداخل في المسائل السياسية)[١٤].

بل إن الحركة الإصلاحية قبل تأسيس الجمعية تذهب إلى مدى أبعد في التقيّة، وفي ذر الرماد في الأعين حين تحمل مجلة (الشهاب) الأسبوعية من ١٩٢٦-١٩٢٩ الديباجة التالية (مجلة حرة وطنية تعمل لسعادة الأمة الجزائرية بمساعدة فرنسا

الديمقراطية) ولم تتردد (الشهاب) في أن تواجه مناورتها هذه، ومعادلتها الصعبة بمقال صريح بعنوان (نحن والسياسة): (نحن والسياسة الجزائرية، ليس لنا من سياسة إلا السياسة الفرنسوية الديمقراطية البحتة التي أنبتت على الحرية والأخوة والعدالة)[١٥].

والشيخ محمد عبده في زيارته للجزائر سنة ١٩٠٣ أكد قضية التعليم، وكأنه يعود بالمسلم المغلوب على أمره في ظلمات الجهل والقهر إلى إشراقة الرسالة السماوية (اقرأ) وتحاشى الإمام المصلح أن يخوض في السياسة حتى إن الشيخ رشيد رضا ليلتمس له ما يشبه العذر حين أرخ للقاء (عبده) بالجزائريين فقال: (وكان خطابه إليهم على ما ترى من اللين تمشياً مع مبدئه: ما دخلت السياسة أمراً إلا أفسدته)[١٦].

* * *

فالحركات الإصلاحية في هذا المنعطف من النهضة العربية الحديثة قامت أساساً لإعادة بناء المواطن على هدي من الله ورسوله، وبناء الشخصية رسالة تربوية وتعليمية بالدرجة الأولى. وإذا تلمسنا القضية التربوية في هذه الفترة وجدناها موزّعة على أكثر من موقع، تعليم موروث أو مستحدث، أصلي أو دخيل.

التعليم المسجدي: ورثت المساجد الكبرى في العالم الإسلامي أمانة النهوض بالرسالة التربوية، وما من شك في أن هذه المساجد اعتبرت لفترة طويلة وقرون متوالية (جامعات إسلامية) يشهد لها التاريخ بالسهر الأمين على الإسلام والعروبة، وعلى توفير المعرفة في حدود الزمان والمكان والإمكان.

ومع بداية النهضة العربية الحديثة التي أعقبت قروناً من الانحطاط في كل نواحي الحياة أخذ التعليم المسجدي يقصر عن الاستجابة للمطالب المعاصرة له، وبدأت دعوات الإصلاح تتوالى لبعث روح جديدة في حلقات الدروس في هذه المساجد الجامعة، واستلهام طرق تربوية تثور العقل وتخفف من وطأة النقل والتلقين، واستقطاب معارف وعلوم لها علاقة بالمعاش لم تألفها هذه المؤسسات في فترة التخلّف.

ومن منطلق الفكرة الإصلاحية نجد هذه المساجد قاصرة حتى عن التربية الدينية التي هي قوام رسالتها، فقد تقوقعت في النظرة المنغلقة، والأفق الضيق، والتلقين المجتر، والموقف المشلول عن معترك الحياة، ولم تكن في ذلك إلا انعكاساً للشلل الذي أصاب الحياة العامة.

وقد حفظ لنا التاريخ انطباعات للمرحوم الشيخ البشير الإبراهيمي عن الوضع التعليمي في بعض المساجد الكبرى في رحلته إلى المشرق العربي سنة ١٩١٢[١٧] فكتب عن حلقات الدروس في المسجد النبوي في المدينة المنورة يقول:

"وطفت بحلق العلم في الحرم النبوي مختبراً، فلم يرق لي شيء منها، وإنما هي غثاء يلقيه رهط ليس له من العلم والتحقيق شيء، ولم أجد علماً صحيحاً إلا عند رجلين هما شيخاي الشيخ العزيز الوزير التونسي، والشيخ حسين أحمد الفيض أبادي الهندي"[١٨].

وفي موقف آخر، يشير (الإبراهيمي) إلى اجتماعه بالشيخين (العقبي) و(ابن باديس) في الحجاز قبيل الحرب العالمية الأولى، وعودة الثلاثة إلى الجزائر:

"وإن هذه الفئة التي رجعت من الحجاز بالهدى المحمدي الكامل، قد تأثرت بالإصلاح تأثراً مباشراً، مستمداً قوته وحرارته من كلام الله وسنّة رسوله مباشرة، ولم تكن قط متأثرة بحال غالبة في الحجاز، فلم يكن للإصلاح في ذلك الوقت شأن يذكر في الحجاز إلا في مجالس محدودة، وعند علماء معدودين"[١٩].

وتؤول ظروف الحرب وثورة (الشريف حسين) بـ(الإبراهيمي) إلى دمشق سنة ١٩١٨[٢٠] بعد ترحيل سكان المدينة من قِبَل الجيش التركي، ويعطينا ومضة أخرى عن الدروس في (الجامع الأموي) فيقول:

"ثم حملني إخواني على إلقاء دروس في الوعظ والإرشاد بالجامع الأموي، فسمع الناس شيئاً لم يألفوه، ولم يسمعوه إلا في دروس الشيخ بدر الدين الحسني المراكشي، فقد كنت أملي التفسير بما يوافق روح العصر وأحداثه"[٢١].

و(جامع الأزهر) في القاهرة لم يكن في وضع أحسن، وإلّا لما كان في حاجة إلى دعوة (محمد عبده) الإصلاحية، بل إن الأزهر في جانب كبير من علمائه ومشائخه حارب هذه الدعوة، وتصدّى لباعثها بكل وسائل التثبيط والخذلان، ودفعه إلى الهجرة والاغتراب، و(الإبراهيمي) وهو يؤرخ للحركة الإصلاحية في الجزائر ويترصّد بداياتها يقول:

"ولو شاء ربك لرمى الجزائر بقافلة من الحجاز مضلّلة، تتخذ من حرم الجوار شركاً جديداً، وتجعل منه غُلّاً في الأعناق شديداً، كما رماها بطائفة من الأزهريين الجامدين، فنادوها قرحاً على قرح، وكانوا ضغثاً على أبالة"[٢٢].

وكان للدعوة (العبدوية) إلى إصلاح التعليم في (الأزهر) أثرها في الدعوة إلى إصلاح نظيره في (الزيتونة) بتونس وازدادت هذه الدعوة إلحاحاً وعنفاً في مستهل هذا القرن[٢٣]، واستمر الإلحاح من أجل إصلاح التعليم الزيتوني متصاعداً، فقد كانت (الزيتونة) قلعة من قلاع التحدّي في وجه الدخيل، وقبلة أبناء المغرب العربي، وما كان يرضى محتل البلاد أن يرى القلعة راسخة الأركان، عالية الأسوار، شامخة الأبراج، عامرة الجنبات، وكما تزعم (محمد عبده) إصلاح التعليم الأزهري، تزعم (الطاهر بن عاشور)[٢٤] إصلاح التعليم الزيتوني، وحتى مستهل الثلاثينات كانت النظرة الإصلاحية في الجزائر إلى الوضع التعليمي في الزيتونية، كما حدّدها (الزاهري)[٢٥]:

"منزلة جامع الزيتونية في قلوبنا، وقلوب الأمة الجزائرية كلها، هي منزلة عالية جداً، فكلنا نحبّه ونرضاه ونهفو إليه، ونتمنى له الخير وزيادة العمران، ولكن هذا لا يمنعنا من أن نبدي ملاحظتنا على ما نشاهده فيه مما لا يتفق وسمعته، ويضيف: إن

التعليم بحالته الحاضرة في الزيتونة هو مما لا يليق بكرامة تونس، ولا بسمعة هذا المعهد الديني الكبير"[٢٦].

* * *

ذاك هو وضع التعليم في كبريات المساجد في أوائل هذا القرن، ولنا أن نتصور وضعه فيما دونها، تعليم قصر عن الأصالة، ولم يطل المعاصرة. تشده عهود الانحطاط إلى الوراء، وتتقطع أنفاسه دون الأمام، وبين تقديم رجل وتأخير أخرى، نشأت حركات الإصلاح في صلب هذه المساجد، وكانت هذه الحركات إحدى المعارك الكبرى مع المستعمر الذي لا تنتعش أطماعه إلا في تخلّف الشعب الذي يحكمه، ومع أذنابه من رعاة هذا التخلف ورعاياه، تعليم أريد له أن يحنط في دائرة التبعية، والإرادة المشلولة، وأراد الإصلاح له أن يخرج إلى دائرة الضوء والإبصار وحمل الأمانة.

والضمائر الحية المؤمنة، الحريصة على الحفاظ على رسالة المسجد تربوياً وتعليمياً، والساعية إلى دعمه بالأساليب في التربية الحديثة، كانت تتطلع منذ القرن الماضي إلى الانفتاح على المدرسة الحديثة، وساعد على هذا التطلع وأذكاه اتصال الشرق بالغرب عن طريق البعثات العلمية إلى خارج الوطن العربي، فعادت هذه البعثات تحمل روحاً معاصرة إلى جانب أصالة لم تفقدها، فقد كانت هذه البعثات خريجة تلك المساجد التي أشرنا إليها، استوعبت نقاط الضعف في تعليمها الأصلي، فتلمست له سبل الإصلاح بعد العودة، فنشأت بعض المدارس الرائدة في النهضة العربية الحديثة، تلك المدارس التي يمكن اعتبارها الحلقة الوسطى في النقلة من التعليم المسجدي إلى الدراسة الجامعية بمفهومها الحديث. فنشأت (مدرسة الألسن) في القاهرة في عهد (محمد علي) وبمبادرة من (رفاعة الطهطاوي) الأزهري، وإمام أول بعثة علمية مصرية إلى فرنسا وواعظها، ونشأت (مدرسة دار

العلوم)[٢٧] في عهد (إسماعيل) بمبادرة من (علي مبارك) العائد[٢٨] من باريس بشهادة مدرسة المهندسين، ونشأت (المدرسة الصادقية) في عهد المصلح (خير الدين باشا التونسي) بمبادرة من عضده الأيمن (محمد بيرم الخامس). ومن الصادقية تخرجت أول بعثة تونسية لاستكمال التعليم العالي في باريس برئاسة (البشير صفر) مؤسس (المدرسة الخلدونية)[٢٩].

هذه الآحاد من المدارس العليا وغيرها، بالرغم من ريادة منطلقها، وأصالة مرجعها، ونبل غاياتها، خضعت لظروف قاسية، هي ضريبة الريادة دائماً، خاصة عندما خضعت البلاد العربية للتدخل الأجنبي الذي أدرك خطر هذه المؤسسات على وجوده، فتسلّط عليها هي الأخرى لتحويلها عن مسارها الوطني وإخضاعها لنواياه المبيتة، بل وصل ببعضها إلى الزج بها في موقف المناهضة للثقافة الوطنية، وتفجيرها بؤرة للصراع بين أبناء الوطن الواحد.

ونحن في غنى عن الحديث عن المدرسة الأجنبية الزاحفة مع المحتل، والجاثمة على أبناء الوطن سواء كانت هذه المدرسة (فرنسية) أو (إنجليزية) أو (إيطالية) مدارس اتحدت منطلقاً وغاية في القضاء على الشخصية الوطنية، عقيدة ولغة، فكراً وثقافة، ومسخ هذه الشخصية وتركها في وضع هي فيه (لا شرقية ولا غربية) تصديقاً لما قاله أحد رجال التربية الاستعمارية الفرنسية:

"ليس الغرض من فتح المدارس في شمال إفريقيا، أن نكون عقولاً مثل عقول مونتسكيو، أو جان جاك روسو أو فولتير. ولكن لنبدّل لغة بلغة وعادات بعادات"[٣٠].

والشيخ أبو اليقظان الصحفي المصلح[٣١]، رائد البعثات العلمية من الجزائر إلى تونس قبيل الحرب العالمية الأولى، يتحدث عن الشبيبة الجزائرية في مواجهة المدارس الأجنبية الفرنسية في أواسط العشرينيات (١٩٢٣) فيقول:

"لم تكن كل العلوم، وكل المدارس، تعطيها سلاحاً تنال به بغيتها، مع المحافظة على دينها المقدّس، وروحها الملية، وعوائدها القومية"[٣٢].

ولم تقتصر هذه الغربة على النظام التربوي فحسب، وإنما انسحبت على الحياة العامة وسممت المناخ العربي الإسلامي لا في مغربه فقط وإنما في المشرق العربي، فظل الاغتراب ملاحقاً الأفكار والمناهج والحياة العامة، وأصبح الاغتراب عن الأصالة رديفاً للتفتح، والانتماء، والوفاء لها رديفاً للرجعية والانطواء.

و(محب الدين الخطيب)،[٣٣] أحد رجال النهضة العربية الإسلامية الحديثة، يتحدث عن الفترة نفسها (١٩٢٧) التي عالجها أبو اليقظان، ولكن في موقع آخر هو القاهرة، فيقول:

"وكان جو القاهرة الفكري والثقافي في ذلك الحين، متشبعاً برطوبة الأخذ بثقافة الغرب لكل ما فيها من خير، وجد وهزل، وأكثر القائمين على التدريس، والعاملين في الصحافة، والمتردّدين على الأندية والمجتمعات، يعدّون كل نزعة إسلامية رجعية وجموداً"[٣٤].

وهي الفترة ذاتها التي عالجها الإمام المصلح عبد الحميد بن باديس وهو يتحدث عن الشباب الجزائري غداة صدور جريدة (المنتقد) سنة ١٩٢٥ باكورة صحافة (جمعية العلماء)[٣٥].

"أعلن (الشهاب) من أول يومه و(المنتقد) الشهيد قبله أنه (لسان الشباب الناهض بالقطر الجزائري) ولم يكن يومذاك من شباب إلا شباب أنساه التعليم الاستعماري لغته وتاريخه ومجده، وقبّح له دينه وقومه، وقطع له من كل شيء- إلا منه- أمله، وحقّره في نفسه تحقيراً"[٣٦].

* * *

والمشرق العربي عانى من اغتراب آخر في الفترة نفسها، غير الاغتراب الذي فرضه الاحتلال الأجنبي بعساكره ومدارسه، وهو الاغتراب الذي فرضته النزعة العرقية التورانية التتريكية. وقد بلغت هذه النزعة أوجها مع وصول (الاتحاد والترقي) إلى الحكم في الآستانة وقلب للشعوب العربية ظهر المجنّ. وتتحدث وثيقة (استراتيجية تطوير التربية) عن وضعية التعليم في المشرق العربي تحت السلطة العثمانية في أواخر القرن الماضي وأوائل قرننا هذا[٣٧]:

"كان التعليم المستحدث يسير بطيئاً، وكانت اللغة التركية هي المعتمدة في الغالب، وكانت مؤسسات التعليم العالي تكاد تكون محصورة في الآستانة ما عدا معاهد قليلة في بعض المدن العربية، مثل بيروت ودمشق، وبغداد".

وإذا أردنا أن نتفحص الوضع بصورة أكثر دقة، وخطونا خطوة داخل (المدرسة السلطانية) في دمشق، الثانوية الوحيدة في العاصمة الأموية قبيل الحرب العالمية الأولى، فلنستمع إلى (محب الدين الخطيب) الذي درس فيها:

"كانت لغة التدريس في هذه المدرسة الثانوية الأميرية اللغة التركية حتى نحو اللغة العربية وصرفها كنا نتعلمها من كتاب باللغة التركية، يسمى (المشذب) قررته نظارة المعارف العثمانية لمدارس الأنضول والروم إيلي، فكان مفروضاً على مدارس الحكومة في الولايات العربية كذلك أن تستعمله في تعليم أبناء العرب نحو لغتهم وصرفها، بل كان معلم العربية في مدرستنا شيخاً تركياً مسنّاً أرسلوه إلينا ليعلمّنا العربية في عاصمة العروبة والإسلام"[٣٨].

ولم تعترف (النزعة التتريكية) في الآستانة بـ(رسمية اللغة العربية) إلا في سنة ١٩١٣ تحت ضغط المطالب التي رفعها المؤتمر العربي الأول في باريس، حتى إن هذا الاعتراف ليعتبره الصحفي الجزائري (عمر بن قدور)[٣٩] جاء بعد فوات الأوان، وبعد اتساع الخرق على الراقع، فكتب في جريدة (الفاروق) في السنة نفسها:

"بعد ذلك الخذلان العظيم، وبعد ذلك التباين المبين، وبعد ذلك الشقاق بين العنصرين التركي والعربي، انتبهت الحكومة العثمانية إلى قيمة اللغة العربية، وقيمة عنصرها الشريف، وقيمة الاعتناء بها، فقرّرت – بعد أن اتسع الخرق على الراقع – جعل اللغة العربية لغة رسمية بعد اللغة التركية، وتدريسها في المدارس الابتدائية.

وهل بعد اتساع الخرق، يسهل الأمر على الراقع؟ نسأل الله أن ينبه المبارك إلى الإصلاحات النافعة للشرق"[٤٠].

في هذا الحصار المطبق، تكون الشخصية الوطنية العربية المسلمة قد تراجعت في مواجهة الاحتلال حتى الخط الأخير للدفاع، وأصبحت مهددة في بقائها ووجودها لأنها مستهدفة في دينها ولغتها، فلم تعد المعركة في سبيل حقوق أو سيادة، وإنما معركة بقاء ووجود. وصدقت قولة لأحد زعماء الإصلاح في الجزائر في العشرينات: "لو تأخرنا عن هذا الشعب عشرين سنة لما وجدنا فيه ما يصلح للإصلاح".

في هذا المنعطف المصيري، والمعترك الوجودي، تبرز الحركات الإصلاحية الحديثة التي كرست جهودها لإعادة بناء الإنسان المسلم العربي، الذي هو رأس المال المهدد بالتصفية والإفلاس. وتصحيح علاقة هذا الإنسان بخالقه، وتنقية لقائه بدينه، وترشيد فهمه لكتاب الله وسنة رسوله، ومراجعة فهمه لذاته ورسالتها في هذه الحياة.

وفي ظل هذه الحركات الإصلاحية، انبعثت المؤسسات التربوية والتعليمية الحرة في مشرق الوطن العربي ومغربه، ومن بينها (معهد الحياة)[٤١] وربما انبعثت المدارس، بمبادرات فردية، من روّاد مصلحين فاحتفى بها ذوو البر والإحسان فأقاموها صروحاً للتاريخ. وإنك لتؤرخ بعجب وإعجاب أن هذه المؤسسات قامت على جهد الشعب وعطائه، على ما في الجهد من وهن، وما وراء العطاء من كفاف، في فترة من القهر والإذلال قائمة. فالمؤسسات استجابة تلقائية لنبض الشعب، وانعكاس عفوي لاستشراف المستقبل في الرواد من أبنائه، وهي بالأحرى خط دفاع جماهيري عن الإسلام في محنته الكبرى مع الاستعمار والاستبداد والتخلف.

وفي الوقت الذي كان فيه الاحتلال الأجنبي يكرس كل مؤامراته لإبادة الأداة اللغوية لهذه النهضة العربية، وإحلال لغته الدخيلة محلها لأنه مدرك بمكر نافذ أبعاد بقاء اللغة حية في الضمير، نابضة في القلب، معبّرة في اللسان، تدينه دخيلاً، وتتوعده طريداً، في الوقت ذاته كانت الحركات الإصلاحية تدرك هي الأخرى، بوعي الأصالة وشفافية الصدق، أن معركتها مع الدخيل تبدأ من بناء المواطن، وبناء المواطن يبدأ من تصحيح العقيدة، وتصحيح العقيدة قوامها تقويم اللسان العربي المبين.

"إن إصلاح لساننا هو الوسيلة المفردة لإصلاح عقائدنا، وجهل المسلمين بلسانهم هو الذي صدّهم عن فهم ما جاء في كتب دينهم وأقوال أسلافهم"(٤٢).

ومن اللافت للنظر، والباعث على التقدير أن ما توصلت إليه مؤخراً وثيقة (استراتيجية تطوير التربية في الوطن العربي) من الترابط الأزلي بين الإسلام والتربية، قد انطلقت منه منذ بداية هذا القرن المؤسسات التربوية في ظل الحركات الإصلاحية، فالوثيقة تقرر:

"أن في الإسلام عقيدة ونظاماً، قوام الحياة السليمة للإنسان والمجتمع، وقد اهتدى به العرب، كما اهتدت به أمم أخرى غيرهم، فكان أساساً لحضارة إنسانية شاملة، وعماداً لثقافة غنية بأنماط الحياة السليمة. فلا بد أن تستلهم أصوله ومبادئه، وأن يستند إليها في تطوير التربية العربية، وفيما يترتب عليها من تطوير المجتمع وتجدده"(٤٣).

فهذه المؤسسات التربوية والتعليمية، قامت في أحضان المساجد، مجاورة لها، نابعة منها، وامتداداً لها، فهي تطوير للرسالة المسجدية وليست انفصالاً عنها، واعتمدت كتاب الله وتفسيره في صدارة برامجها، واللغة العربية في صلب مهامها، ولم تقصر في انفتاح على علوم عصرية، ما وجدت إلى ذلك سبيلاً، بل تخطتها إلى لغات أجنبية من غير عقدة أو انطواء.

إن الحركات الإصلاحية اعتمدت بناء المسجد والمدرسة معاً، فهي تصلح للدين والدنيا، فما قام مسجد إلا واحتضن مدرسة أو معهداً في رحابه وذلك ما عهدناه، في المؤسسات التي نهضت بها (جمعية العلماء) أو (النهضة الإصلاحية) في جنوب الجزائر[٤٤].

وهذه الرسالة الدينية والدنيوية تبعد عن هذه المؤسسات شبهة الانطواء والعزلة عن معترك الحياة، بل إن جهودها في بناء المواطن على قاعدة تربوية وطنية سليمة تضعها في مصاف المواجهة المتقدمة لمحتل البلاد، والأيام أثبتت ذلك، والأحداث شاهدة على ذلك.

قامت هذه المؤسسات استجابة لضمير حيّ، وبصيرة نافذة في زعماء الإصلاح مشرقاً ومغرباً، وانبعثت تلبية لحاجة ملحّة، وسدّاً لفراغ لم تقو على سدّه المؤسسات الموجودة في الساحة العربية آنذاك.

ونعود إلى قولة الشيخ (أبي اليقظان) عن وضع الشبيبة الجزائرية في مواجهة المدارس الأجنبية لا في الجزائر فحسب وإنما في تونس، فهو يتحدث عن البعثة التعليمية من جنوب الجزائر إلى الخضراء بعد الحرب العالمية الأولى:

"لم تكن كل العلوم وكل المدارس، تعطيها سلاحاً تنال به بغيتها مع المحافظة على دينها المقدس، وروحها الملية، وعوائدها القومية، ففكر بعض المصلحين من أبنائها في شأن ذلك مدّة مديدة، وأخيراً رأوا أنهم لا يجدون بغيتها إلا في المدارس القرآنية الأهلية، فبدأت تتكون من ذلك طبقة مستنيرة أخذت تظهر بها لشعبنا النبيل حياة جديدة، وحركة فكرية، وروح ملية لم يكن ليحلم بها من قبل. والله يعلم ماذا يكون مآله بها، وأين تبلغ من العزّ والمكانة إذا أمد الله في عمرها"[٤٥].

وهـذه الفقـرة لأبـي اليقظـان فـي سـنة ١٩٢٣ تؤكـدها فقـرة أخـرى مماثلـة للإبراهيمي في سنة ١٩٤٤ وهو يتحدث عن وضع التعليم قبيل الحرب العالمية الأولى:

"وكانت الإدارة الجزائرية إلى ما قبل حرب ١٩١٤ تتظاهر بشيء من التساهل مع التعليم العربي الحرّ لأنه كان – إذ ذاك– قاصراً، لا يفتح ذهناً، ولا يغذّي عقلاً، ولا يربّي ملكة لغوية، فلما هبّ شعور الأمة وقوي، باحتياجها إلى فهم لغتها لتفهم دينها، وتطوّر التعليم الحرّ في العقدين الأخيرين، قلقت الإدارة الجزائرية بذلك، ولما لم تجد بيدها من القوانين العامة ما تتخذه سلاحاً التجأت إلى القرارات الإدارية[٤٦].

ومن أسوأ ما في تلك القرارات أثراً، وأشدّه إيلاماً وجرحاً لعواطف المسلمين عامة وللعرب خاصة ما جاء في بعض بنود تلك القرارات من اعتبار اللغة العربية لغة أجنبية في بلاد عربية هي الجزائر، وجاء دور تنفيذها على يد صغار الإداريين، فبالغوا وأسرفوا في التنكيل والمحاكمة، وسيق معلمو العربية إلى مجالس القضاء، كما يساق المجرمون وفرضت عليهم العقوبات المالية والبدنية من سجن وتغريب ولا زالت بقاياهم في المنفى إلى الآن".

وما سمّي بـ (المدرسة الحرة) في الجزائر، أو (المدرسة القرآنية) في تونس، أو (المدرسة الأهلية) في القاهرة[٤٧]، وهو ما يقابل التعليم الخاص حالياً إنما هي أسماء متعددة لمسمّى واحد، ومعنى أوحد، هو أن هذه المؤسسة التربوية، نابعة من الشعب، قائمة بعرقه وجهده، فارضة وجودها على محتل البلاد، يكيد لها بالمكر، فتقوى عليه بالعزيمة، يقهرها بالقوة حيناً، فتستعصي عليه بالحق أبداً، يذلّ القائمين عليها مادياً، وقد يصل الإذلال إلى الجسد، ولكنهم برسالتهم، وفي معنوياتهم أحرار، فوق بطش العدو وقهره، وما تسموا في عهد المستعمر بـ(المعلمين الأحرار)

إلا مصداقاً لذلك، وما انتسبت مؤسستهم إلى القرآن، أو الأهل، أو الحرية، إلا رموزاً لأهداف بعيدة.

ولو جئنا نضرب الأمثلة ببعض المؤسسات التربوية الحرّة، المتجاورة زمناً، المتماثلة رسالة، التي كسبتها النهضة الحديثة في الوطن العربي، صلة وصل وثيقة بالإسلام في أعزّ أيامه، وبالعروبة في أسنى تراثها الفكري والحضاري، ووقفة وعي ومسؤولية على الحاضر في أحلك أيامه، وأقسى مآسيه صراعاً مع الباطل الداخلي والدخيل، وإطلالة استشراف على المستقبل في بشائره الملوحة، وانتصاراته المظفرة.

لو جئنا نضرب الأمثلة، لأعيانا العدّ، وإنما هي نماذج لمؤسسات تربوية شاء القدر أن تكون لها علاقة بأبناء الجزائر، فقد فرضت المحنة الاستعمارية على هؤلاء الأبناء أن يتلمسوا طرق النجاة بدينهم ولغتهم ولو في أقصى الأرض، فهربوا بدينهم ولم يهربوا من وطنهم. طاردتهم المدرسة الفرنسية بالمسخ، فاستنجدوا بهويتهم في المؤسسة التربوية الحرّة، فإن لم تتوفر لهم داخل وطنهم، تعلقوا بالثريا بحثاً عنها.

إن شهيد الثورة الجزائرية الأديب الرائد (أحمد رضا حوحو)[٤٨] أكمل دراسته في أواخر العشرينات في (الكوليج) بسكيكدة، ثم التحق بـ(مدرسة العلوم الشرعية) في المدينة المنورة سنة ١٩٣٥، وأكمل دراسته بها سنة ١٩٣٨ وكانت السنوات الثلاث كافية لتوجيه هذه التحية إلى مدرسته يوم تخرجه من القسم العالي فيها، وانتصابه للتدريس بها[٤٩]:

"أجل، إليك يرجع فضل حياتي هذه الإسلامية العربية التي هي ضالتي المنشودة والتي من أجلها قطعت البحار العميقة، والفيافي الشاسعة، مضحياً بكل ثمين.

لقد تربيت يا مدرستي العزيزة في مدارس أجنبية، واكترعت من علوم أجنبية، ولما منّ الله عليّ بالهجرة إلى هذه الديار المقدّسة، مهد آبائي الأولين، وجدت نفسي غريباً بين قومي، شاذّاً في معلوماتي، متطرفاً في أفكاري، وحيداً في عاداتي، فريداً في أطواري وأصبحت من يومي أطوف يميناً وشمالاً، باحثاً عمن يعلّمني لغتي، مفتّشاً عمن يعلّمني علوم قومي وآدابهم"[٥٠].

فمدرسة العلوم الشرعية لم تخرّج للجزائر، أديباً رائداً، وكاتباً مبدعاً فحسب، وإنما خرّجت للثورة الجزائرية أحد شهدائها الأبرار.

ومدرسة العلوم الشرعية كما يقول (عبدالقدوس الأنصاري)[٥١] عنها وعن مؤسسها المصلح الإسلامي (حسين أحمد الفيض آبادي الهندي) سنة ١٩٢٠[٥٢].

"كان تأسيسه لها فاتحة عهد جديد لاتساع أفق المعرفة، ونشر التعليم ضمن إطار ما يزال في الامتداد والاتساع فهو من هذه الناحية أحد (بناة العلم في الحجاز الحديث) وهو بهذا الاعتبار الرائع أحد رجالات التاريخ، الذين يحق للمؤرخ أن يعدّهم من الفاتحين، وهو بهذه النظرة الدقيقة، والنظرية الممحصة، يستحق الإشادة، وتخليد الذكر جيلاً بعد جيل"[٥٣].

ويضيف (الأنصاري) عن (العلوم الشرعية) في المدينة و(معهد الفلاح) بمكة:

"معهدان قام عليهما ركن من أركان الثقافة الحاضرة، والثقافة المرتقبة في المملكة العربية السعودية، وكان معهد (الفلاح) في منهجه وغاياته الأول في بيت الله الحرام"[٥٤].

ومن العجيب أن غلاة الاستعمار الفرنسي في شمال إفريقيا، كانوا يدركون أن هذه (المؤسسات التربوية الحرة) إنما هي قنابل موقوتة، ستنفجر في وجوههم في وقت معلوم، ويوم قامت (المدرسة الخلدونية) بجوار (جامع الزيتونة) في تونس،

لتكمّل رسالته بروح وطنية، واستشراف مسؤول، قال رئيس (اتحاد المعمرين الفرنسيين) في تونس:

"إذا ما قدّر أن تندلع ثورة في البلاد التونسية، فإن هيئة أركان ثوارها تكون قد تخرجت من الخلدونية"[٥٥].

ومصداقاً لهذه القولة المسعورة، وتصديقاً لهذا التطيّر الكاشف، وعلى مدى أوسع من البلاد التونسية، قال الشيخ عبدالحميد بن باديس، أحد الذين تلقوا دروس الوطنية في الخلدونية على يد مؤسسها (البشير صفر)[٥٦]:

"وأنا شخصياً أصرح بأن كراريس (البشير صفر) الصغيرة الحجم، الغزيرة العلم هي التي لها الفضل في اطلاعي على تاريخ أمتي وقومي، والتي زرعت في صدري هذه الروح التي انتهت بي اليوم لأن أكون جندياً من جنود الجزائر"[٥٧].

فمن الوجهة الوظيفية كانت هذه المؤسسات للتربية قبل التعليم وللنهضة قبل التلقين، ومن المنطلق الوطني، كانت نقاط إشعاع ثقافي وفكري على المجتمع، وكانت نبض الشعب في مناسباته التاريخية، ومحافله القومية، وكانت متنفّس أمانيه المكبوتة ومنبر نداءاته الحبيسة، فكل مؤسسة بمفردها تمثل تاريخاً حافلاً بالأمجاد، ويوميات جياشة بالعواطف، وسجلاً وطنياً في تأليف رجال الإصلاح والفكر والأدب، ورسل التربية والتعليم، ودعم المسيرة النضالية للشعب العربي بعناصر مؤمنة بقيمها الروحية، معتزة بتراثها الحضاري، واثقة من غدها، تتلمس تباشيره في ثنايا رسالتها الصابرة، وتلك هي رسالة كل زعيم مصلح عبّر عنها الشيخ البشير الإبراهيمي بقوله[٥٨]:

"لم يتسع وقتي للتأليف والكتابة مع هذه الجهود التي تأكل الأعمار أكلاً، ولكنني أتسلى بأنني ألفت للشعب رجالاً، وعملت لتحرير عقوله تمهيداً لتحرير

أجساده. وصححت له دينه ولغته فأصبح مسلماً عربياً، وصحّحت له موازين إدراكه، فأصبح إنساناً أبيّاً، وحسبي هذا مقرّباً من رضى الربّ، ورضى الشعب".

هذه الكلمة التاريخية للإبراهيمي تنطبق على كل زعيم مصلح مشرقاً ومغرباً من هؤلاء الذين شيّدوا المدرسة الحرة، فألفوا الرجال الأحرار.

فالحركات الإصلاحية الحديثة، في إطار الإسلام والعروبة، هي من هذا المنطلق حلقة رئيسية، واصلة وفاصلة، فاصلة بمعنى الحسم لا البتر، وواصلة بمعنى الوفاء بين حلقات الملحمة البطولية لتحرير العقل والجسد، وفي مسلسل الصراع مع الغزو الأجنبي. هذه الحلقات انطلقت مسلحة في المواجهة الأولى للأقدام الغازية، ثم تراجعت سياسية في مدافعة محتل البلاد، ثم انبعثت إصلاحاً للتعبئة الروحية، لتتصاعد مرة أخرى سياسة راشدة، وتنطلق من جديد ثورة مسلحة لا يخطئها النصر، فلولا الحلقة الإصلاحية الوسطى، لانبترت الحلقات الأربع بداية ونهاية. ومع التسليم بتداخل الحلقات، وتناوبها على المواقع، واستمرار كل نفس وطني ممتداً دون انقطاع، موصولاً من غير بتر، فإن لكل مرحلة تاريخية، مميزاتها الغالبة، وعنوانها البارز، ينصفها من غير أن يجحف غيرها.

والذين ينفون البعد السياسي عن الحركات الإصلاحية في هذه الفترة، إنما يبرهنون عن قصور في إدراك مفهومي (السياسة والإصلاح) معاً، وقد يكون هذا القصور عن الإدراك مبرراً ومقبولاً في فترة التقية من بطش العدو، والمناورة لتخطي أحابيله. في فترة كانت الحركات الإصلاحية متفرعة لتثبيت أسسها، وتعميق جذورها قبل أن تعصف بها الرياح، وتأمين ناشئتها وتعبئتها عقيدة وروحاً وفكراً. فأرجىء البعد السياسي للأيام تكشفه، وعلقت النقاط فوق الحروف للمستقبل يضعها. بل إن الإصلاح لم يترك هذه المهمة للأيام ولا تلجلج عندما تأكد أن الفرصة مواتية للمصارحة، ولا انتظر المعركة الفاصلة ليسفر عن غاياته وأهدافه

البعيدة، بل جابه المحتل وهو في عنفوان طغيانه، ودافعه وقدمه راسخة في الأرض، وصدعه بالحقيقة وقبضته لم تزل متسلطة على رقاب العباد.

فجمعية العلماء التي نادت صحافتها سنة ١٩٢٥ بـ(سعادة الأمة الجزائرية بمساعدة فرنسا الديمقراطية) وتبرأت المادة الثالثة من قانونها الأساسي سنة ١٩٣١ من المناقشات السياسية، لم يلبث مؤسسها ابن باديس سنة ١٩٣٧، بعد ست سنوات فقط أن أسفر عن الحقيقة التاريخية التي فرضتها الثورة بالسلاح سنة ١٩٥٤.

"أعلن (الشهاب) من أول يومه و(المنتقد) الشهيد قبله أنه يعمل لسعادة الأمة الجزائرية بمساعدة فرنسا الديمقراطية، فوضع الأمة الجزائرية بإزاء الأمة الفرنسية، إذ كل منهما لها ذاتيتها ومقدساتها ومميزاتها القلبية والعقلية والنفسية والتاريخية التي يستحيل معها أن تندمج في أمة أخرى. على هذه الحقيقة ناهض (الشهاب) التجنس والاندماج، وناضل عن الشخصية الإسلامية"[٥٩].

وإذا كانت الديباجة اليسرى للشهاب تعلن أن الشهاب (مجلة حرة وطنية تعمل لسعادة الأمة الجزائرية بمساعدة فرنسا الديمقراطية، فإن الديباجة اليمنى تعطي وجهاً آخر للعملة، (الشهاب مجلة تهذيبية انتقادية شعارها، الحق فوق كل أحد والوطن قبل كل شيء..) وتلتقي هذه المبادئ مع شعار (معهد الحياة) عند تأسيسه سنة ١٩٢٥: (الدين والخلق قبل الثقافة، ومصلحة الوطن قبل مصلحة الفرد)[٦٠].

وبنظرة أخرى في القانون الأساسي لجمعية العلماء نجد أكثر من مادة في صلب القانون نفسه تجب المادة الثالثة المتعلقة بالمناقشات السياسية، لأن هذه المواد تتناول الإسلام أصلاً من أصول الدعوة الإصلاحية، والإسلام يجب ما قبله، تصرح هذه المواد بأن الإسلام[٦١]:

- يسوّي في الكرامة البشرية والحقوق الإنسانية بين جميع الأجناس والألوان.

- يفرض العدل فرضاً عاماً بين جميع الناس بلا أدنى تمييز.
- يحرم الظلم بجميع وجوهه، وبأقل قليله من أي أحد، على أي أحد من الناس.
- يحرّم الاستعباد والجبروت بجميع وجوهه.

وإذا كانت الدعوة الإصلاحية مبنية على هذه القواعد الراسخة، والمثل العليا لمفهوم الحرية الإنسانية، والكرامة البشرية عند الإسلام، فأية حاجة في هذا الإصلاح للمناقشات السياسية الجوفاء، يجهض بها رسالته ويستفزّ بها أعداءه.

فالبعد السياسي كامن في الحركة الإصلاحية، ضمير مستتر في ثناياها، جاهر بذلك الزعيم المصلح أو ناور، كشف السرّ أو تركه للأيام تكشفه، ضاقت به النفس فصارح، أو احتمل الضيم فاحتسب أجره عند الله والتاريخ. وإن من نكد الأيام أن الرواد للأحداث التاريخية الذين يتحمّلون عناء سرها وكتمانها عملاً دؤوباً، وجهداً صامتاً، يصبحون مثار شك وريبة، ومحل همز ولمز عند الذين لا يطيقون صبراً على الأيام حتى يبكتهم التاريخ.

إن المؤسسات التربوية الحرة في مرحلة الحكم الأجنبي، ومن بينها (معهد الحياة) التي قامت أساساً لإعادة بناء الإنسان، وبعث المواطن، بهدي من دينه ولغته وحضارته، إنما تتخطى السياسة بمفهوم الاحتراف، والتحزب الأرعن، والجدلية العقيمة، والآنية العابرة. وتخبئ هذا المواطن للسياسة في أسمى معانيها، والسيادة في أكمل وجوهها، والمواطنة في أعرق جذورها، والأخوة في أنبل مشاعرها.

قال شاعر الجزائر، وترجمان الحركة الإصلاحية فيها، وشاعر العروبة والإسلام (محمد العيد خليفة)[٦٢] في حوار ومكاشفة مع النفس[٦٣]:

فلا تحقري صوتي الرقيق، فإنه من الشعب كالسلك الرقيق المكهرب

ولا تحقري ضعفي وليني، ففيهما رضا الله، لا في قوتي، وتصلبي
وكم من أخ في الدين خان، فلم أخن ولاطفته أرجو السماح، كمذنب
أخوه أنا، ما دام يقبلني أخا وفي حرمتي، ما دام في حرمة الأب
ولست لغير الله، أرهب سطوة فما كان غير الله عندي بمرهب
وما كان غير الرفق عندي صالحاً لشعب مريض بالهوى والتحزب
فيا أيها الداعي إلى الله، لا تحد عن الرفق، إن الرفق أربح مكسب

وبالرغم من الهموم الضيقة، والتجزئة التي فرضتها سياسة فرق تسد، والإقليمية التي كرستها أخاديد السيطرة الأجنبية، والمرض بالهوى والتحزب، والمعاناة في سبيل الوطن المغتصب، فإن الحركات الإصلاحية، تجاوزت المنطلق الجغرافي لدعوتها، وعانقت الإسلام والعروبة في أوسع مدى في الحاضر، وأعمق بعد في التاريخ، ندرك هذه الأبعاد عندما نقرأ الفقرة المنصفة التالية لابن باديس في (أبي اليقظان)، وهما رمزان من رموز الأخوة في الله والدين والوطن:

"وأبو اليقظان إلى جانب (ميزابيته) التي يفاخر بها وله الحق، عربي يجاهد ويخالد في سبيل العروبة، ووطني يناضل ويقارع في سبيل الوطنية، ومسلم أخلص لله دينه، يجعل الإسلام في الصف الأول من كل أعماله"[٦٤].

واللفتة (الباديسية) هذه بما تتسم به من روح إسلامية عالية، وهي الروح التي انبنت عليها الحركات الإصلاحية في الجزائر، ومؤسساتها العلمية، هذه اللفتة يترجمها (أبو اليقظان) مفهوماً للإصلاح، وسلوكاً للعمل، وإلهاماً للشعر، يوم وقف في (نادي الترقي) وفي ظل المؤتمر السنوي لجمعية العلماء سنة ١٩٣٤[٦٥]:

كيف لا تزهو الجزائر بالحميا (البابلية)
وبنو (مازيغ) مع أبناء (قحطان) الفتية
أصبحوا في ردهة النا دي، على أحسن نية

فـــي حمـــى النـــادي تصـــافت أنفـــس الشـــعب الزكيـــة
فـــي حمـــى النـــادي تلاشـــت همـــزات العنصـــرية
فـــي حمـــى النـــادي تعالـــت صـــرخة الشـــعب القويـــة

وعندما يعيينا الاجتهاد في استنباط الأمور، ويقعد بنا الفكر في استشراف الأحداث، ويضيق بنا الصدر في استكناه الحقائق، نستنطق الشعر فيصدقنا القول، ونسترشد أبياته فتعبر الرؤيا، فالقيادات الرشيدة تتكتم الأسرار وفوران الشعر يفضحها، والمعاهد تبني الشباب في صمت، ثم تطلق له العنان ليترجم عن غاياتها. كذلك كان (معهد الحياة) في بناء أبنائه. وكذلك كان مؤسسه، خالد الذكر (إبراهيم بيوض) حين تأخذه النشوة، ويهتز به الفخر وهو يستمع لـ(محمد جريدي)[٦٦] ربيب معهد الحياة وشاعر الحركة الإصلاحية، والوطنية المتأججة في الأربعينات، يتجاوز الإصلاح بمظهره (العبدوي) إلى الإصلاح بمخبره (الثوري)، فيهتك الستر عن حقيقة (فرنسا)[٦٧].

ألمت بنا، فاستنزفت خير شعبنا وضاق بنا في قطرنا الرحب عمران
وقد سلبت منا تراث جدودنا تراث لو أبقته، لكنا كما كانوا
شهامة نفس، واعتزاز بدولة ودين وأخلاق، وعز، وسلطان
فلا بد من تطليقها بعد لحظة كما طلقتها أمس (سوريا ولبنان)
فقل لبنيها أن يلوذوا ببحرهم وأن يتقوا ذا الشعب، فالشعب غضبان
وأن يقصدوا غير الجزائر مطلباً فلم يبق في أرض الجزائر إذعان
حذار من الأحرار، إن قلوبهم إذا انفجرت في الضاغطين لبركان
ونحن إذا ثرنا، فطلاب حقنا وأنتم إذا ثرتم علينا، فثيران
وأنتم كليل، نحن منه كواكب ونحن كبحر، أنتم منه حيتان
فخير لكم، أن تسرعوا لبحاركم فليس لعيش الحوت في البرّ إمكان

فالشاعر (جريدي) في أبياته يكمل الوجه التربوي للإصلاح، بالوجه السياسي للثورة ويترجم عن مشاعر مزدوجة في الأعماق، تحتبس زمناً لتتصاعد في مناسبة تاريخية إسلامية، وإن الشاعر ليوغل في هذا الاتجاه السياسي الجامح حتى ليكاد ينفرد في الأربعينات بهذه الصرخات المدوية، والمستعمر في ذورة جبروته، والثورة الجزائرية على عتبة ميلادها[٦٨]:

روضة الحريات، تطلب غيثاً ... فاسقها من دمائنا أنهارا
فهي لا ترتضي بغير دم الحر ... ولو كان الوابل المدرارا
في دم الحر، نشهد المجد غضا ... ونرى في الغصون منه اخضرارا
في دم الحر للشعوب زلال ... وقد أمسى في بطن مجريه قارا
في دم الحر للشهيد حياة ... ولو أمسى تحت التراب يوارى
في دم الحر، للعروبة فخر ... وقد أمسى على الجناة شنارا
دعه، يستهدف الأشاوس للبغي، ... فصرح الجهاد، لن ينهارا
دعه يعدو على الضعاف فأيا ... م التعدّي، لا شك تغدو قصارا
دعه يشفي لصدره منك غيظاً ... ربما قد أحس فيه انحدارا

* * *

يا غلاة الإجبار، حسبكم (هت ... لير) زجراً وعبرة وادكارا
يا غلاة الإجبار، مهلاً، فهلا ... لم يك فرعون قبلكم جبارا
أبحكم الإجبار، ترضون شعبا ... لا يريد الحياة، إلا اختيارا
يا غواة الزمان، هلّا حذرتم ... من زمان لما يزل غدارا
فاتركونا، وشأننا فظلام ... البغي ولّى، وقد لمسنا النهارا
نحن أحرار شعبنا مذ خلقنا ... وسنبقى رغم العدى أحرارا
إن قطر الجزائر اليوم، أمسى ... غير فخر، يسابق الأقطارا

وإذا أردنا أن نتلمس في سنة ١٩٥٣ ملامح الثورة الجزائرية، ومخاضها وهي المولودة سنة ١٩٥٤، ونستكشف تباشير السيادة المنتظرة والكرامة المسترجعة عبر جحافل شهداء الثورة الخالدة، فلنقرأ هذه الأبيات للشاعر الملهم (مفدي زكريا) في الاحتفال بافتتاح صرح من صروح الحركة الإصلاحية في الجزائر (دار الطلبة) لمعهد عبدالحميد بن باديس بقسنطينة، فسنجد أن الحركات الإصلاحية التي انبنت على تقوى من الله ورضوان، هي سكينة الشعب في روعه، وملاذ الركب في ضياعه[٦٩]:

(جمعية العلماء المسلمين) ومن ... للمسلمين سواك اليوم منشود
أمانة الشعب، قد شدّت بعاتقكم ... فما لغيركم، تلقى المقاليد
هذ المدارس كالأعلام قائمة ... للعلم يحرسها قوم مناجيد
وهذه بعثات العلم شاخصة ... للشرق يكلاها للشرق تأييد
جاء (البشير) فزكاها وأرسلها ... فصائلاً، كلها عزم وتأكيد
فابنوا المدارس في عرض البلاد، فما ... غير المدارس للتحرير تمهيد
وراقبوا الله والتاريخ، في غده ... وعهد (باديس) إن العهد موجود

* * *

يا دار أنت على التقوى مؤسسة ... مبناك بالطهر، مرصوص ومشدود
يا دار حملت آمال البلاد، ففي ... أحشائك اليوم أشبال صناديد
دار ابن باديس في (سرتا) يظللها ... نصر، ألا إن نصر الله موعود
ما بين جدرانها، تحيا الجزائر لا ... من فوق جدرانها تتلى التهاجيد

تلك هي الروح الإسلامية، والنخوة العربية، والعزة الوطنية التي بثتها في الساحة العربية هذه المؤسسات التربوية الحرّة الرائدة في فترة كان فيها التعليم

العربي جبهة من أعنف الجبهات في الدفاع عن الشخصية العربية المسلمة في مواجهة الغزو الاستعماري لإبادة هذه الشخصية.

هوامش للمراجعة

(١) إذا تجاوزنا ثورة الأمير عبدالقادر في وجه الحملة الفرنسية على الجزائر، تلك الثورة التي كادت تغطي الربع الثاني من القرن التاسع عشر (١٨٣٠-١٨٤٧) والتي تعتبر الوقفة الإسلامية العربية الأولى في وجه أول هجمة للأطماع الغربية في الوطن العربي. إذا تجاوزنا هذه الثورة فإننا نضيف على سبيل التمثيل لا الحصر:

في الجزائر، ثورة المقراني وثورة ابن الحداد سنة ١٨٧١. في مصر ثورة عرابي سنة ١٨٨٢ في تونس ثورة (ابن غداهم)، الجهاد الليبي في وجه الحملة الإيطالية سنة ١٩١١ في مكة ثورة الشريف حسين سنة ١٩١٦، في دمشق قيام الحكم العربي سنة ١٩١٨ وانتفاضة ١٩١٩ في القاهرة، وفي المغرب ثورة الريف سنة ١٩٢٤ ومعركة ميسلون سنة ١٩٢٠. عدا التصادم المستمر مع التسلط الأجنبي الذي لم ينقطع له نفس حتى معارك التحرير والاستقلال في الخمسينات.

(٢) الشيخ محمد عبده كان من مؤيدي أحمد عرابي في ثورته، وكان جمال الدين الأفغاني من الدعاة البارزين إلى ربط الإصلاح الديني بالإصلاح السياسي، وكانت الزعامات الدينية الصادقة في المشرق وبالمغرب تقف في الخطوط الأمامية من مدافعة المستعمر.

(٣) يقول الدكتور محمد عمارة في كتابه: (جمال الدين الأفغاني):

"ومن هنا كان الأفغاني أول من أقام تنظيماً سياسياً وطنياً مصرياً في العصر الحديث وهو تنظيم (الحزب الوطني الحر) الذي ظهر نشاطه علناً في سنة ١٨٧٩ وهو الحزب الذي تكونت في صفوفه قيادات مصر السياسية والفكرية في ذلك التاريخ بمن فيهم قيادة الثورة العرابية بمختلف أجنحتها وتياراتها".

(٤) انظر: جمال الدين الأفغاني موقظ الشرق وفيلسوف الإسلام.

د. محمد عمارة، دار الشروق، الطبعة الثانية ١٩٨٨.

(٥) انظر: مسلمون ثوار، د. محمد عمارة، دار الشروق ١٩٨٨ الطبعة الثانية.

(٦) عبدالرحمن الكواكبي: (١٢٧٠-١٣٢٠هـ/ ١٨٥٤-١٩٠٢).

(٧) في مقدمة كتاب (طبائع الاستبداد) يتحدث الكواكبي عن طريقة تأليف هذا الكتاب بعد هجرته إلى مصر سنة ١٨٩٩:

"فنشرت في بعض الصحف الغراء أبحاثاً علمية سياسية في طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد. منها ما درسته ومنها ما اقتبسته، ثم كلفني بعض الأعزاء بجمع تلك الأبحاث تعميماً للفائدة، فأضفت إليها بعض زيادات، وحولتها إلى هيئة هذا الكتاب".

وأما كتابه (أم القرى) فيتحدث عن مسار تأليفه الشيخ محمد رشيد رضا في مجلة (المنار) سنة ١٩٠٢ فيقول:

"ولما هاجر إلى مصر كان أول أثر له فيها طبع سجل (جمعية أم القرى) وكان يقول إن لهذه الجمعية أصلاً وأنه هو توسع في السجل ونقحه ست مرات آخرها عند طبعه منذ سنتين ونيف أي عقيب قدومه إلى مصر. وقد قال لنا مرة: إن الإنسان يتجرأ أن يقول ويكتب في بلاد الحرية ما لا يتجرأ عليه في بلاد الاستبداد، بل إن بلاد الحرية تولد في الذهن من الأفكار والآراء ما لا يتولد في غيرها".

(٨) انظر: عبدالرحمن الكواكبي شهيد الحرية ومجدد الإسلام، د. محمد عمارة، دار الشروق ١٩٨٨ صفحة ٣٥ و٣٦.

(٩) يوم أسس الأفغاني (جمعية العروة الوثقى) في كلكوتة بالهند سنة ١٨٨٢ كان من بين أعضائها من رجال الإصلاح والسياسة في المغرب العربي، الأمير عبدالقادر في أخريات أيامه، والمصلح السياسي التونسي محمد بيرم الخامس، والمصلح الزيتوني الشيخ محمد السنوسي الذي أسس فرعاً لـ(العروة الوثقى) في تونس، وهو الذي استضاف في منزله الشيخ محمد عبده في زيارته الأولى لتونس قادماً إليها من

باريس بعد توقف جريدة (العروة الوثقى) سنة ١٨٨٤. وكان (الأفغاني) مؤسس (الحزب الوطني المصري) الذي مهد للثورة العرابية و(محمد عبده) هو الذي صاغ برنامج الحزب. ومن رجال الإصلاح والسياسة الذين أسسوا أحزاباً، الزعيم عبدالعزيز الثعالبي مؤسس (الحزب الحر الدستوري التونسي) سنة ١٩٢٠ وهو الحزب الذي قاد تونس إلى الاستقلال سنة ١٩٥٦.

(١٠) مثل (المؤتمر العربي الأول) في باريس سنة ١٩١٢ الذي لم يتجاوز المطالبة ببعض الحقوق في ظل اللامركزية العثمانية، ومثل (حزب النواب) الذي أسسه الأمير خالد حفيد الأمير عبدالقادر في الجزائر سنة ١٩١٩ والذي اقتصر في مطالبه على بعض الحقوق النيابية والاجتماعية والتعليمية تحت الحكم الفرنسي.

(١١) إن هذا الموقف من الإمام محمد عبده كان سبباً للجفوة التي فصلت بينه وبين أستاذه الأفغاني عندما عاد محمد عبده من المنفى إلى مصر، وأقام الأفغاني في الآستانة في أخريات أيامه. فقد كان الأفغاني يعيب على الإمام مسالمته للإنجليز، وبعده عن الخط الثوري الذي عرف به في الثورة العرابية، بينما كتب الإمام عن الأفغاني يقول:

"إن السيد جمال الدين كان صاحب اقتدار عجيب لو صرفه ووجهه للتعليم والتربية لأفاد الإسلام أكبر فائدة، وقد عرضت عليه حين كنا في باريس أن يترك السياسة، ونذهب إلى مكان بعيد عن مراقبة الحكومات، ونعلم ونرقي من نختار من التلاميذ على مشربنا فلا تمضي عشر سنين إلا ويكون عندنا كذا وكذا من التلاميذ الذين يتبعوننا في ترك أوطانهم والسير في الأرض لنشر الإصلاح المطلوب فينتشر أحسن الانتشار. فقال الأفغاني لي: إنما أنت مثبط".

انظر: الإمام محمد عبده، د. محمد عمارة. دار الشروق الطبعة الثانية ١٩٨٨.

(١٢) (تاريخ الأستاذ الإمام) رشيد رضا، ج١ صفحة ٨٧٠.

(١٣) جريدة (ذو الفقار) ٣٠ رجب ١٣٣١هـ ١٤ يوينو/ حزيران ١٩١٤م.

انظر: شعر المقاومة الجزائرية، صالح خرفي، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، بدون تاريخ، صفحة ١٢٦.

(١٤) انظر: صالح خرفي، الشعر الجزائري الحديث صفحة ١٤٠ المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر ١٩٨٤.

انظر: تاريخ الحركة الوطنية. د. أبو القاسم سعدالله. دار الآداب، بيروت ١٩٦٩.

(١٥) الشهاب، عدد ١٢/ رجب ١٣٤٤هـ ٢٨ جانفي/ يناير ١٩٢٦م، وانظر: صالح خرفي، المدخل إلى الأدب الجزائري الحديث، صفحة ٣٠ الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر ١٩٨٠.

(١٦) جاء في تاريخ الأستاذ الإمام، رشيد رضا، ج١ ص ٨٧٠.

"وصادفت زيارة الإمام للجزائر تولية (جونار) حاكماً عليها، وكان الجزائريون ينظرون إليه نظرة تفاؤل، لذلك كان خطابه إليهم على ما ترى من اللين تمشياً مع مبدئه "ما دخلت السياسة عملاً إلا أفسدته".

(١٧) انظر: مجلة (الثقافة) الجزائرية، السنة ١٥ العدد ٨٧/١٩٨٥.

(١٨) المرجع السابق.

(١٩) انظر: صالح خرفي، الشعر الجزائري، صفحة ٧٠.

(٢٠) ترحيل سكان المدينة المنورة إلى دمشق كان سنة ١٩١٧ بأمر من الحكومة التركية عند استفحال ثورة الشريف حسين، وعجز الحكومة عن تموين الجيش الذي بلغ تعداده (٥٠) ألفاً وسكان المدينة الذين بلغ عددهم ثمانين ألفاً، فقرر القواد

العسكريون نقل السكان إلى مصدر الأقوات في دمشق عوضاً عن نقلها إلى المدينة والتفرغ لتموين الجيش.

(٢١) مجلة (الثقافة) الجزائرية العدد ٨٧، شعبان – رمضان ١٤٠٥هـ مايو – يونيو ١٩٨٥م المرجع السابق.

(٢٢) في سبيل إصلاح (الأزهر) ناضل الإمام محمد عبده لإدخال بعض المواد على برنامج التعليم ومنها مادة (الجغرافيا) وفي نقاش ساخن بينه وبين الشيخ (البحيري) في إدارة الأزهر:

قال (البحيري): إننا نعلمهم كما تعلمنا.

قال (الأستاذ): وهذا هو الذي أخاف منه.

فرد (البحيري): ألم تتعلم أنت في الأزهر، وقد بلغت ما بلغت من مراقي العلم وصرت فيه العلم الفرد.

فرد (الأستاذ): إن كان لي خط من العلم الصحيح، الذي تذكر، فإنني لم أحصله إلا بعد أن مكثت عشر سنين أكنس من دماغي ما علق فيه من وساخة الأزهر وهو إلى الآن لم يبلغ ما أريده له من النظافة.

(٢٣) في سنة ١٩٠٧ تأسست (الجمعية الزيتونية) برئاسة الشيخ محمد الطاهر بن عاشور لإصلاح التعليم الزيتوني وفي سنة ١٩٠٩ عندما أضرب طلبة الجامع الأزهر عن الدروس تجاوب معهم طلبة جامع الزيتونة باجتماع حاشد في الجامع للمطالبة بإصلاح التعليم الزيتوني وإدخال مادتي التاريخ والجغرافيا في البرنامج، وفي ١٩١٠ قرر الطلبة الإضراب عن الدروس. وأمرت الحكومة بإغلاق الجامع، فتحول صحن الجامع إلى محفل للاجتماعات الوطنية والحماسية لزعماء الحركة الوطنية في تونس حتى اضطرت الحكومة إلى الاستجابة لمطالب الإصلاح، وفتح الجامع للتدريس من جديد.

انظر: أضواء على تاريخ تونس الحديث. البشير بن الحاج عثمان الشريف، الفصل الخاص بـ(التعليم الديني، ونظام الدراسة) بجامع الزيتونة صفحات ١٣٧-١٤٤، دار بوسلامة للطباعة والنشر والتوزيع، تونس ١٩٨١.

(٢٤) محمد الطاهر بن عاشور (١٨٨٩-١٩٧٣) من زعماء إصلاح التعليم الزيتوني فقيه ومفسر من أشهر مؤلفاته في التفسير (التحرير والتنوير) ومن كبار علماء الزيتونة. وله شرح (ديوان بشار) و(النابغة الذبياني).

انظر: الجابري محمد صالح (النشاط العلمي والفكري للمهاجرين الجزائريين بتونس)، الدار العربية للكتاب، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ١٩٨٣.

(٢٥) محمد السعيد الزاهري (١٨٩٩-١٩٥٦) من رجال الإصلاح في الجزائر، ومن مؤسسي (جمعية العلماء المسلمين الجزائريين) سنة ١٩٣١، درس في جامع الزيتونة، كاتب وشاعر، نشر في (الفتح) و(المقتطف) و(الرسالة) و(الشهاب) وصحافة (جمعية العلماء) في الجزائر.

انظر: صالح خرفي، محمد السعيد الزاهري، سلسلة (الأدب الجزائري الحديث) (٥)، المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر ١٩٨٦.

(٢٦) انظر: المرجع السابق.

(٢٧) يقول الإمام محمد عبده: "إن دار العلوم تصلح أن تكون ينبوعاً للتهذيب النفسي والفكري والديني والخلقي، ويمكن أن ينتهي أمرها إلى أن تحل محل الأزهر، وعند ذلك يتم توحيد التربية في مصر".

انظر: الإمام محمد عبده، د. محمد عمارة، دار الشروق القاهرة ١٩٨٨.

(٢٨) علي مبارك باشا (١٢٣٩-١٣١١/١٨٢٣-١٨٩٣م) أنشأ علي مبارك أكثر من مدرسة عالية في العلوم الإنسانية مثل مدرسة الحقوق سنة ١٨٦٨ ومدرسة اللسان

الحبشي في السنة نفسها، ومدرسة اللسان المصري القديم سنة ١٨٨٩، أما مدرسة دار العلوم ومدرسة الألسن فقد أنشئتا سنة ١٨٧٨.

انظر: علي مبارك، مؤرخ ومهندس العمران، د. محمد عمارة، دار الشروق، الطبعة الثانية ١٩٨٨.

(٢٩) كان تأسيس (الجمعية الخلدونية) صدى للإصلاحات التي أدخلت على التعليم الأزهري في أواخر القرن الماضي بإدراج مواد الحساب والتاريخ والجغرافيا في البرامج، وبمبادرة من البشير صفر تأسست سنة ١٨٩٦ الجمعية الخلدونية لتعليم ما لا يدرس في العلوم في جامع الزيتونة، مثل التاريخ والجغرافيا والاقتصاد السياسي والفيزياء والكيمياء وفن الرسم.

وكان البشير صفر نفسه يدرس مجاناً في الخلدونية دروس الجغرافيا والتاريخ ومن خلالهما يشرح أهداف الاستعمار والأخطار المحدقة بالعالم العربي الإسلامي.

انظر: أضواء على تاريخ تونس الحديث ١٨٨١-١٩٢٤ البشير بن الحاج عثمان الشريف، دار بوسلامة للطباعة والنشر والتوزيع، تونس ١٩٨١.

(٣٠) انظر: صالح خرفي، المدخل إلى الأدب الجزائري الحديث الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر ١٩٨٤.

(٣١) أبو اليقظان إبراهيم (١٨٨٨-١٩٧٣) شيخ الصحافة الإصلاحية في الجزائر في فترة الاستعمار الفرنسي، صدرت له ثماني جرائد في الفترة من (١٩٢٦-١٩٣٨) ورائد البعثات التعليمية من الجزائر إلى تونس، شاعر، ومؤلف وفقيه. صدر له (الشيخ سليمان الباروني حياته وجهاده) في جزأين سنة ١٩٥٧، وله بعض المخطوطات التي لم تصدر بعد.

انظر: محمد ناصر. (أبو اليقظان وجهاد الكلمة) الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر ١٩٨٠.

انظر: صالح خرفي (أبو اليقظان في الخالدين) مجلة الثقافة السنة الثالثة العدد ١٤/١٩٧٣.

(٣٢) – انظر: إبراهيم بن الحاج عيسى القراري (أبو اليقظان) إرشاد الحائرين مطبعة العرب بتونس سنة ١٣٤١-١٩٢٣.

(٣٣) محب الدين الخطيب (١٨٨٦-١٩٦٩).

(٣٤) انظر: محب الدين الخطيب، الدكتور صلاح الدين القاسمي المطبعة السلفية ١٩٥٩.

(٣٥) صدرت (المنتقد) سنة ١٩٢٥ ولم يصدر منها إلا ثمانية عشر عدداً حيث أوقفتها السلطات الاستعمارية بعد أربعة أشهر من صدورها في السنة نفسها ١٩٢٥ انظر: محمد ناصر (الصحف العربية الجزائرية) من سنة ١٨٧٤-١٩٣٩، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر/ ١٩٨٠.

(٣٦) مجلة (الشهاب) ج١ م١٤/١٩٣٨

وانظر: صالح خرفي، (الجزائر والأصالة الثورية)

الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر ١٩٧٧.

(٣٧) انظر: استراتيجية تطوير التربية العربية، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، الطبعة الأولى ١٩٧٩ تنفيذ مؤسسة دار الريحاني للطباعة والنشر، بيروت.

(٣٨) انظر: محب الدين الخطيب، الدكتور صلاح الدين القاسمي.

(٣٩) عمر بن قدور الجزائر (١٨٨٦-١٩٣٢) رائد الصحافة الوطنية الجزائرية، نشر في صحافة الشرق العربي والإسلامي منذ أوائل القرن، كان مراسل جريدة (اللواء) القاهرية من الجزائر، نشر في جريدة (الحضارة) في الآستانة لعبدالحميد الزهراوي قبل الحرب العالمية الأولى، أصدر جريدة (الفاروق) رائدة الصحافة الوطنية

الجزائرية سنة ١٩١٢، طاردته السلطات الفرنسية بسبب مواقفه الوطنية الجريئة وكتاباته اللاذعة، ونفته إلى الصحراء الجزائرية طيلة سنوات الحرب الأولى، وبعد الحرب أصدر السلسلة الثانية من (الفاروق) لكنها أخف لهجة، تصوّف في أواخر أيامه.

انظر: صالح خرفي، عمر بن قدور الجزائري، سلسلة الأدب الجزائري الحديث، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر ١٩٨٤.

(٤٠) المرجع السابق.

(٤١) عندما تأسس المعهد في (القرارة) جنوب الجزائر سنة ١٩٢٥ بمبادرة من رائد النهضة الإصلاحية في وادي ميزاب الشيخ الإمام إبراهيم بن عمر بيوض كان ساعده الأيمن في إدارة المعهد والتدريس فيه الشيخ شريفي سعيد (الشيخ عدون) الحجة في النحو العربي ولم يزل- أمد الله في أنفاسه- يواصل رسالته الإدارية والتعليمية في المعهد، إلى جانب رعايته للحركة الإصلاحية ومدارسها وجمعياتها الثقافية في الجنوب وفي أنحاء القطر الجزائري. وهذه الحركة منذ نشأتها تقوم على تمويل تطوعي من أبناء المنطقة.

(٤٢) انظر: أضواء على تاريخ تونس الحديث، صفحة ٧٥، البشير بن الحاج عثمان الشريف دار بوسلامة للطباعة والنشر والتوزيع، تونس ١٩٨١.

(٤٣) انظر: استراتيجية تطوير التربية العربية.

(٤٤) يذكر الشيخ الإبراهيمي رئيس (جمعية العلماء المسلمين الجزائريين) بعد وفاة مؤسسها (ابن باديس) سنة ١٩٤٠ أن عدد المدارس التي أسستها الجمعية حتى سنة ١٩٥٢ بلغ أربعمائة.

انظر: مجلة (الثقافة عدد (٨٧)).

(٤٥) انظر: إرشاد الحائرين. إبراهيم بن الحاج عيسى القراري، مطبعة العرب تونس ١٩٢٣.

(٤٦) انظر: محمد البشير الإبراهيمي، التقرير الذي قدمه المجلس الإداري باسم جمعية العلماء المسلمين الجزائريين إلى رجال الحكومة الجزائرية في أواسط رمضان ١٣٦٣ المطبعة الإسلامية الجزائرية بقسنطينة.

(٤٧) نعتت الحركة الإصلاحية في الجزائر مدارسها بـ(الحرة) تمييزاً لها من المدارس الرسمية الحكومية التي كانت اللغة الفرنسية فيها لغة التدريس. وعرفت تونس في أوائل القرن (المدارس القرآنية الأهلية) التي انفتحت على العلوم العصرية واللغات الأجنبية، وهو التطور نفسه الذي عرفته المدارس القرآنية أو الأهلية في مصر على يد علي مبارك باشا.

(٤٨) أحمد رضا حوحو (١٩١١-١٩٥٦) كاتب، وأديب جزائري، قضى فترة من حياته في الحجاز ١٩٣٤-١٩٤٥ حيث أقام في المدينة المنورة مع أسرته المهاجرة ودرس في (مدرسة العلوم الشرعية) وقام بالتدريس فيها بعد التخرج، ثم عين سكرتيراً لمجلة (المنهل) في أول صدورها وفيها بدأ كتاباته القصصية التي يعتبر بها من رواد القصة والمسرح في الحجاز إلى جانب عبدالقدوس الأنصاري ومحمد عالم الأفغاني ومحمد سعيد العامودي، كما يعتبر من رواد الترجمة الأدبية في الحجاز، فقد كانت دراسة (حوحو) في الجزائر باللغة الفرنسية قبل انتقاله إلى الحجاز، فترجم لـ(هوجو) و(فولتير) و(لامارتين) وترجم كتابات المستشرق المسلم (ناصر الدين ديني).

عاد (حوحو) إلى الجزائر في أواسط الأربعينات ليرود فيها القصة القصيرة والمسرحية والكتابة النقدية الساخرة، وعين سكرتيراً لـ(معهد عبدالحميد بن باديس) في قسنطينة، وكان لا يهادن الاستعمار في كتاباته، ومواقفه ومسرحياته، وتعتبر مؤلفاته القصصية من المجموعات الأولى من نوعها في الجزائر.

صدر له: غادة أم القرى – الجزائر ١٩٤٧

مع حمار الحكيم – الجزائر ١٩٥٣

صاحبة الوحي – وقصص أخرى – قسنطينة – الجزائر ١٩٥٤

نماذج بشرية – سلسلة كتاب (البعث) تونس ١٩٥٥

اختطفه غلاة الاستعمار في يوم ٢٩ مارس ١٩٥٦ من منزله ليلاً واغتالوه، ولم يظهر له أثر بعد ذلك، فكان من بين شهداء الثورة الجزائرية من رجال الفكر والقلم والإصلاح أمثال (العمودي) و(التبسي) و(القعون) و(أبو شامة) و(فرعون) وكلهم من علماء الجزائر وأدبائها وشعرائها وكتابها.

صالح خرفي، أحمد رضا حوحو في الحجاز (١٩٣٤-١٩٤٥) مخطوط.

(٤٩) تخرج (حوحو) في مدرسة العلوم الشرعية بالمدينة سنة ١٩٣٨ وعين فيها مباشرة.

(٥٠) المرجع السابق: أحمد رضا حوحو في الحجاز.

(٥١) عبدالقدوس الأنصاري (١٣٢٤هـ-١٤٠٣هـ) مؤسس مجلة (المنهل) في المدينة المنورة سنة ١٣٥٣هـ-١٩٣٧م رائدة المجلات الأدبية في المملكة العربية السعودية وأطول المجلات العربية عمراً ممدوداً، وتعتبر (المنهل) المدرسة التي تخرج على صفحاتها رواد النهضة الأدبية الحديثة في الحجاز في المقالة الأدبية، والشعر والقصة والمسرحية والترجمة، والكتابات التاريخية.

(والأنصاري) مؤلف أول عمل قصصي في الحجاز، (التوأمان) سنة ١٣٤٩هـ وصدر له كتاب (آثار المدينة المنورة) سنة ١٩٣٥، و(بين التاريخ والآثار) و(تاريخ جدة) و(بناة العلم في الحجاز الحديث – السيد أحمد الفيض آبادي) ١٣٦٥هـ – ١٩٤٦م. و(الأنصاري) ذاته أحد بناة العلم في الحجاز الحديث، وأحد رواد النهضة الأدبية الحديثة فيه.

(٥٢) انظر: بناة العلم في الحجاز الحديث، عبدالقدوس الأنصاري، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة ١٩٤٦.

(٥٣) المرجع السابق: بناة العلم في الحجاز الحديث.

(٥٤) المرجع السابق.

(٥٥) أضواء على تاريخ تونس الحديث ١٨٨١-١٩٢٤ البشير بن الحاج عثمان الشريف. دار بوسلامة للطباعة والنشر والتوزيع، تونس ١٩٨١.

(٥٦) البشير صفر (١٨٦٣-١٩١٧ أبو النهضة التونسية، زعيم وطني، خطيب، وكاتب وصحفي، درس بالمدرسة الصادقية وسافر إلى باريس ضمن أول بعثة صادقية للدراسة في فرنسا، أسس سنة ١٨٨٨ جريدة (الحاضرة) وأسس (المدرسة الخلدونية) سنة ١٨٩٦.

انظر: الجابري، النشاط العلمي والفكري للمهاجرين الجزائريين في تونس.

(٥٧) انظر: الخرفي صالح، في رحاب المغرب العربي دار الغرب الإسلامي ١٩٨٤.

(٥٨) انظر: مجلة (الثقافة) الجزائرية، السنة ١٥ العدد ٨٧ شعبان/ رمضان ١٤٠٥هـ مايو/ يونيو ١٩٨٥م.

(٥٩) انظر: خرفي صالح، الجزائر والأصالة الثورية ١٩٧٧ ومجلة (الشهاب) ج١ م١٤ أفريل ١٩٣٨.

(٦٠) وهو الشعار نفسه الذي كانت تحمله الصحيفة الدورية الداخلية التي كان يصدرها طلبة المعهد باسم (الشباب).

(٦١) انظر: أبو القاسم سعدالله، الحركة الوطنية الجزائرية، وصدرت في مجلة (الشهاب) سنة ١٩٣٧ نشرة ثانية لمبادئ الجمعية، استبعدت الفقرات الخاصة بتحريم المناقشات السياسية،

انظر: الشعر الجزائري، صالح خرفي صفحة ٣٦١.

(٦٢) محمد العيد خليفة (١٩٠٤-١٩٧٩).

(٦٣) ديوان محمد العيد خليفة، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر ١٩٧٩.

(٦٤) انظر: ناصر محمد، أبو اليقظان وجهاد الكلمة، المؤسسة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر ١٩٨٠.

(٦٥) انظر: خرفي صالح، صفحات من الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر ١٩٧٤.

(٦٦) محمد جريدي، شاعر معاصر، وأحد الخريجين من معهد الحياة، وأحد رجال التربية والتعليم في الجزائر، لم تنشر له مجموعة شعرية وأحتفظ بمجموعة خطية لشعره بإهداء منه.

(٦٧) المولد النبوي الشريف يعتبر من المعالم التاريخية في مسيرة الحركة الإصلاحية في الجزائر، فإلى جانب إحياء ليلة مولده عليه الصلاة والسلام، تقام في الأسابيع التالية للذكرى عكاظيات شعرية وأدبية يتبارى فيها طلبة (معهد الحياة) وتعتبر هذه المحافل الأدبية متنفساً للمشاعر الوطنية، وكان الشاعر محمد جريدي فارس هذه المحافل في الأربعينات، نزعة وطنية وروحاً قومية. وهذه المولدية تعود إلى سنة ١٩٤٩.

(٦٨) ألقى الشاعر هذه القصيدة في حفل زفاف أحد طلبة معهد الحياة في أواخر الأربعينات والشاعر يخاطب بهذه الأبيات المقتطعة من القصيدة شباب الجزائر.

(٦٩) انظر: مفدي زكريا (اللهب المقدس) الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر ١٩٨٣.